بديع الزمان الهمداني ينهج نهجه ويسجع سجعه يميل نحوه ويلتزم طريقه.[1]

ولا شك أن ثقافة ابن زيدون الواسعة تجعل معرفة الأستاذ الذي تأثر به أمراً غير متيسر فأنت تجد في رسائله أسلوب الجاحظ وأبي إسحاق الصابي وابن العميد، استمع إليه في رسالته الجدية يقول:

"يا مولاي، أبقاك الله، ماضي حد العزم، واريَ زَند الأمل، ثابت عهد النعمة، إن سلبتني. أعزّك الله. لباس نعمائك، وعطلتني من حلى إيناسك، وأظمأتني إلى برود إسعافك، ونفضت بي كف حياطتك، وغضَضَت عني طرفَ حمايتك، بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك، وسمع الأصم ثنائي عليك، وأحس الجماد باستحمادي إليك، فلا غرو قد يغص بالماء شارِبه ويقتل الدواء المستشفي به، ويؤتى الحَذِر من مأمنه، وتكون منية المتمني في أمنيته، والحين قد يسبقه جهد الحريص.

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهونُ غير شماتة الحساد"

ويقول في رسالته الهزلية:

"أما بعد: أيّها المصاب بعقله، المورط بجهله، البيّن سَقَطُه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغترارِه، الأعمى في شمس نهاره، السّاقط سقوط الذباب على الشراب، المتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن العجب أكذب ومعرفة المرء نفسه أصوب، وإنك راسلتني مستهدياً. من صلتي. ما صَغرت منه أيدي أمثالك، متصدياً. من خلتي. لما قُرِعَتْ دونه صنوف أشكالك"، حتى يقول:

"بطليوسَ سوَّى الاسطرلاب بتدبيرك، وصوَّر الكرة على تقديرك وأبقراط علم العلل والأمراض بلطف حسّك، وجالينوس عرف طبائع الحشائش بدقة حدسك، كلاهما قلدك في العلاج وسألك عن المزاج، واستوصفك بتركيب الأعضاء، واستشارك في الدّاء والدّواء".

رسالة التوابع والزوابع لابن شهيد الأندلسي:

تعريف بالمؤلف:

هو أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شهيد، وكنيته أبو عامر، وكنية أبيه أبو مروان، أشجعي يرجع نسبه إلى الوضاح الذي كان مع الضحاك بن قيس في مرج راهط سنة ٦٥هـ، ورث المكانة عن آبائه كابراً عن كابر فقد كان جده الأعلى وزيراً للأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط، وجده الأدنى وزيراً للخليفة الناصر، وأبوه عاملاً للمنصور بن أبي عامر.

ولد بقرطبة سنة ٣٨٢هـ وتقلب في أحضان النعمة ومهاد السعادة والبلهنية فانعكست نشأته الأولى على حياته فيما بعد فمال إلى اللهو والبطالة وأسرف في الكرم

---

١ الأدب الأندلسي، ٥٩٢.

إلى حد المبالغة إلا أنه بقي على شيء من عزة النفس والكبر وذلك لنسبه الرفيع ومال إلى الفكاهة والهزل على نحو ما يصوره أدبه.

وينقل لنا ابن بسام ترجمة تفصيلية لحياته وآثاره من شعر ونثر ويصور لنا معاناة الشاعر من معاملة أبيه القاسية في حادثتين كانتا معه في الخامسة من عمره وفي الثامنة.

تفاعل مع أحداث عصره وأبناء زمانه تفاعلاً شديداً، فقد صور لنا الفتنة في قرطبة والحياة الأدبية فيها حتى توفي سنة ٤٢٦هـ بعد معاناته سبعة أشهر من مرض الفالج.

وقفت دراسات كثيرة عند شاعريته ونثره وعلى الرغم من كونه من شعراء عصره المتميزين الذين شهد لهم النقاد بالبراعة والتفوق ومنهم ابن بسام الشنتريني،[1] فإن ديوانه لم يجمع في حياته ولم ترد الإشارة إلى جمعه بعد وفاته كذلك، حتى نهض باحثون محدثون لهذه المهمة،[2] وما بقي من أشعاره يمثل جزءاً مما نظمه وقد بلغت (٨٥٣) بيتاً، واستدرك على الديوان عبد العزيز المساوري.

ويلاحظ أن ابن شهيد كان واحداً ممن كتب لهم. وهم قلائل. التفوق والإبداع في ميادين الشعر والنثر والنقد، وتبدو براعته في النثر والنقد في آثاره الأدبية التي تركها ومنها كتاب حانوت عطار، ورسائل متفرقة فضلاً عن رسالة التوابع والزوابع.[3]

التوابع والزوابع:[4]

لغة:

جمع تابع وتابعة ومعناها في المعاجم: الجني أو الجنية اللذان يكونان مع الإنسان يتبعانه حيثما ذهب،[5] والزوابع جمع زوبعة، اسم شيطان ويكنى الإعصار أبا زوبعة حين يدوم ثم يرتفع إلى السماء ساطعاً يقال فيه: شيطان مارد، كذلك يطلق على رئيس الجن.[6]

اصطلاحاً:

أطلقت تسمية التوابع والزوابع على رسالة خيالية كتبها ابن شهيد الأندلسي متصوراً نفسه في رحلة مع جني يسميه (زهير بن نمير) يرحل به إلى أرض الجن حيث يلتقي هنالك بتوابع الشعراء وزوابعهم، وواضح من تسمية الرسالة صلتها بالمعنى اللغوي. مما

---

١ الذخيرة، ١/١/١٩١.

٢ جمع أشعاره وحققها د. شارل بيلات، دار المكشوف، بيروت، ١٩٦٣. كذلك حققه يعقوب زكي، دار الكتاب العربي، القاهرة، د.ت.

٣ الجذوة، رقم ٢٣٢.

٤ ذكر الحميدي اسماً آخر لهذه الرساله هو "شجرة الفكاهة". الجذوة، ٢٧٤.

٥ العين، مادة (تبع). القاموس المحيط، (تبع).

٦ العين، مادة (زبع). القاموس المحيط (زبع).

وصل إلينا من هذه الرسالة، وهو مجموعة فصول يدرجها الباحثون المحدثون ضمن الإطار القصصي[1] ونستطيع أن نكون فكرة عنها، مفادها أن الشاعر افترض هذه الرحلة إلى عالم الجن ليقابل الشعراء والكتاب العرب ممن سبقوه، يجري المحاورات والمناظرات الأدبية على لسان توابعهم فينتزع إعجابهم بعد أن يسمعهم أمثلة من أشعاره.

انفرد ابن بسام الشنتريني (٥٤٢هـ) بإيراد فصول هذه الرسالة،[2] واستهلها بقوله: "وإن صدرت عنه مصدر هزل فتشتمل على بدائع وروائع"،[3] وفي صدر الرسالة يخاطب يقول: "لله أبا بكر ظن رميته فأصميت..." ويسترسل في توجيه رسالته إليه، فمن يكون أبو بكر هذا؟ تشعبت آراء المحدثين وتعددت فيه، إلا أن أوثق مصدر يتحدث[4] عن ابن شهيد هو الذخيرة لابن بسام يثبت قبل الرسالة أن المقصود به (أبو بكر بن حزم) وتابعه في ذلك ابن سعيد الأندلسي.[5]

وينسب أحمد هيكل الالتباس لابن بسام، ذلك أن الشاعر كانت له صلات قوية ببني حزم،[6] فافترض أن يكون المذكور ابن حزم شقيق أبي محمد بن حزم الفقيه، وينفي هيكل صلة ابن شهيد بأبي بكر بن حزم، كما ينفي أن تكون الرسالة موجهة إليه لأنه مات صغيراً بالطاعون سنة ٤٠١هـ. كما يذكر الفقيه في كتابه طوق الحمامة، وكان ذلك قبل تأليف رسالة التوابع والزوابع،[7] وقد وقع في مثل هذا الوهم شارل بيلا.[8]

لذلك يترجح لدى هيكل أن يكون المقصود "بأبي بكر" الكاتب الملقب بـ(باشكمياط) والذي أوقع الباحثين في هذا الالتباس، جهلهم بوجود شخصية أخرى باللقب والكنية هي شخصية أبي بكر يحيى بن حزم، الذي ترجم له الحميدي، والضبي، وذكره ابن سعيد كذلك..[9] ولإحسان عباس فضل إجلاء هذا الالتباس، حيث نفى الصلة بين شخصية أبي بكر بن حزم وأسرة بني حزم المشهورة[10].. مستفيداً من ترجمة الحميدي (المتوفى سنة ٣٨٨هـ، بعد وفاة ابن شهيد بحوالي ستين عاماً) حيث نص في ترجمته على

---

١ ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ص ٦٧، د. مصطفى محمد السيوفي، ط عالم الكتب، بيروت، سنة ١٩٧٥.

٢ الذخيرة، ٢٤٥/١/١ وما بعدها. وقد قام بطرس البستاني بضم هذه الفصول بين دفتي كتاب، نشره بعنوان رسالة التوابع والزوابع ممهدا له بدراسة تفصيلية عن حياة الشاعر وأدبه وقيمة الرسالة وأهميتها، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.

٣ الذخيرة، ٢٤٥/١/١.

٤ نفسه، ٢٤٥/١/١.

٥ المغرب، ٧٩/١.

٦ الذخيرة، ٢٤٥/١/١.

٧ الأدب الأندلسي، ٢٨٤ . ٢٨٥.

٨ ابن شهيد الأندلسي، حياته وآثاره، ٥٤، ٩٥، محاضرات ألقاها في الجامعة الأردنية، عمان، كلية الآداب، ١٩٦٥.

٩ الجذوة، ٣٧٤. البغية، ٥٠٠. المغرب، ٧٩/١.

١٠ تاريخ الأدب الأندلسي، ٢٨٤/١. كذلك هامش، د. إحسان عباس، رقم ٤. في الذخيرة، ٢٤٥/١.

أنه من بيت آخر غير بيت الفقيه، كما نص على أن رسالة ابن شهيد موجهة إليه، وأما ابن بسام (ت٥٤٢هـ) فقد كان هو الآخر من أبناء عصر الشاعر وكان دقيقاً جداً في المعلومات التي ضمنها كتابه الذخيرة حيث "مارس البحث الطويل والزمان المستحيل"[١] على ما يذكره في مقدمة كتابه.

ومن الباحثين حازم عبد الله الذي استوفى مناقشة هذه القضية، فحقق هذه الشخصية، في رسالته الجامعية وأبره ذلك بالحجج المنطقية.[٢]

فصولها:

ساق ابن بسام مقدمتها وسماها صدر الرسالة ثم يورد بعدها أربعة فصول منها.. وسنتناول التعريف بها.

جعل ابن شهيد صدر رسالته مدخلاً مناسباً ليعلل به رحلته إلى عالم الجن فقد أورد على لسان أبي بكر بن حزم إعجابه ببراعته الشعرية. على صغر سنه. حيث عزاها إلى تابعة تنجده وزابعة تؤيده لأن تلك الشاعرية ليست في قدرة الإنس.

فيعلل ابن شهيد براعته الشعرية إلى أنه في مطلع حياته، ومبدأ شبابه، مات من كان يهواه فجزع عليه جزعاً شديداً وقصد رثاءه فاستغلق عليه ذلك ثم نظم أبياتاً قليلة وارتج عليه القول ثم أسعفه فارس يمتطي فرساً أدهم ويصيح به أعجزاً يا فتى الإنس؟ ثم يجيز أبياته وبعد أن يثبت ابن شهيد إجازته يسأله عن شخصيته، فيخبره بأنه زهير بن نمير من أشجع الجن وتتفق الصحبة بينهما وتتأكد المودة.[٣]

أما الفصل الأول، فيلتقي فيه الشاعر بتوابع الشعراء بعد أن يرحل معه على متن جواده كالطائر يجتاب الجو فالجو ويقطع الدو فالدو حتى ينزل أرضاً متفرعة الشجر عطرة الزهر يعلم من صاحبه أنها أرض الجن فيخيره فيمن يبدأ في اللقاء فيقول أبو عامر: "الخطباء أولى بالتقديم، لكني إلى الشعراء أشوق، فيتجول في أودية تلك الأرض يتعرف على توابع الشعراء. الذين نذكرهم كما وردوا في الرسالة. امرئ القيس، وطرفة بن العبد، وقيس بن الخطيم، من الجاهليين وأبي تمام والبحتري وأبي نواس وأبي الطيب المتنبي من العباسيين يجري في لقائه بهم محاورات ومناظرات شعرية ينتزع فيها إعجابهم بشعره ويحصل على إجازتهم برواية أشعارهم وكانت طريقته في ذلك أنه يستمع لهؤلاء الشعراء غرر أشعارهم ثم ينشدهم روائع شعره وقد بلغ الإعجاب ببعضهم أنهم عدوه مشرقياً.

وأما الفصل الثاني، ففيه يلتقي بتوابع الكتاب ويسميهم (الخطباء) فيلتقي في مجلس واحد بتابعي الجاحظ وعبد الحميد الكاتب، ثم يقرأ عليهما رسالته في صفة البرد والنار

---

١ مقدمه الذخيرة، ١٦/١/١.

٢ ابن شهيد الأندلسي، حياته وأدبه، ٢١٠ .٢١٢.

٣ رسالة التوابع والزوابع، ص ٨٩ . ٩٠. وينظر قول الجاحظ في سبب رفعة مكانه الخطيب على الشاعر وذلك لاتخاذهم الشعر مكسبا.